الآنية المستطرقة

مسرحيّة من فصل واحد

هنريت عبّودي

غرفة جلوس تحتلّ رفوفُ كتب معظم جدرانها. إلى اليمين نافذة كبيرة تطلّ على حديقة، وإلى اليسار باب يفضي إلى ممرّ. بجوار النّافذة يجلس سالم وفي يده صحيفة يقلّبها. من المذياع الموضوع على طاولة صغيرة ينساب صوت أنثويّ يتلو نشرة أخبار. تدخل هند حاملة إناء زهور. تضع الإناء على طاولة مستديرة تتوسّط الغرفة، تنظر لجهة المذياع ثمَّ تتقدَّم باتّجاهه بخطوات ثابتة. تضغط على زرّ المذياع بعصبيّة فيختفي الصّوت.

سالم ـ ماذا فعلت؟ لماذا أغلقت المذياع؟ إنَّ نشرة الأخبار لم تنته بعد!

هند ـ وهل تنتهي نشرة أخبارك؟ ما إن تختفي من محطّة حتّى تظهر على أخرى...

سالم ـ أعيدي فتح المذياع من فضلك. هنالك أخبار هامّة!

هند ـ أخبار الأحوال الجوّيّة؟ أيهمّك إلى هذا الحدّ معرفة هل سيكون الطّقس غداً ممطراً أو مشمساً؟ أم هل ستهبّ علينا الرّياح من الشّرق أو من الغرب؟.... أنت، في مطلق الأحوال، لا تبارح هذه الغرفة.

سالم ـ كفاكِ هذراً. هنالك خبر هام ستعاد إذاعته، فلا تفوّتيه عليّ.

هند ـ سبق لك إذن أن سمعته. وسوف تستمع إليه، حتماً، في نشرات لاحقة. فأيّة مصيبة إن فاتك الإصغاء إليه مرّة يتيمة واحدة؟

سالم ـ وأيّ ضرر إن سمعته مراراً وتكراراً؟ ألن ننتهي من هذه الدّراما اليوميّة حول نشرة الأخبار؟

هند ـ حول نشرات الأخبار بالأحرى... لو اكتفيت بالاستماع إلى نشرة الأخبار مرّة واحدة في النهار، أو لنقل صباحاً وظهراً ومساءً، لما سمحت لنفسي بإبداء أيّ اعتراض، لما تذمّرت. فتلك حال النّاس كافّة. أمّا أن أعيش مع مهووس أخبار، فهذا أمر لا يطاق. فعلى نشرة الأخبار نصحو وعليها نغفو!

سالم ـ مادام المذياع قد غدا عدوّك فتجنّبي الدخول إلى هذه الغرفة. إنَّ الدار واسعة والحمد لله.

هند ـ الدّار داري، ولي الحقّ في الدخول إلى الغرف كافّة... ثمَّ إنَّ صوت مذياعك يطاردني حيثما ذهبت.

سالم ـ وأنا، أليس من حقّي أن أنعم بحرّيّتي في عقر داري؟

هند ـ شرط ألاَّ تتعدّى على حرّيّتي!

سالم ـ وهل تعتبرين ذلك تعدّياً؟ يا ناس، يا عالم! أما عاد يحقّ لي حتّى الاستماع إلى نشرة أخبار؟

هند ـ من يحرمك من هذا الحقّ؟

سالم ـ أنت!

هند ـ أنا؟ أنا لا أعترض إلاَّ على إدمانك الأخبار.

(سالم يضغط بعصبيّة على زرّ المذياع فيرتفع صوت المذيعة. هند تضغط على الزرّ بدورها فيختفي الصّوت).

هند ـ كفى شجاراً... اسمع، لديّ حديث معك.

سالم (مستغرباً) ـ حديث؟ وهل من أحاديث بيننا؟... لقد نسيت حتّى طعم الحديث!

هند ـ هنالك أشياء هامّة أودّ أن أكلّمك عنها.

سالم ـ آه، فهمت. آن أوان نشرة أخبارك الشخصيّة.

هند (بتعالٍ) ـ ليس من عادتي تلاوة نشرات الأخبار.

(وتضيف متودّدة):

هند ـ ألا يهمّك معرفة ما كنت سأقول؟

سالم (بسخرية) ـ أتحرّق شوقاً لمعرفة ما كنت ستقولين!... لكن مادمت قد صمّمت على الكلام فأفضي بما عندك، ربّما تطلقين سراحي بعد ذلك وتدعينني وشأني.

هند (وهي تدنو من النّافذة) ـ كنت لتوّي في الحديقة. أذكّرك بالمناسبة بأنّه لولا اعتنائي اليومي ببقعة الخضار تلك لحوّلتها الأعشاب الضارّة إلى مرتع لها، وأطفال الجوار إلى مزبلة! كنت إذن في الحديقة أتفقّد شجيرات الورد وأنعم بمشهد البراعم المنتصبة باعتزاز، منتشية بقرب موعد تفتّحها على الحياة...

سالم (بتهكّم) ـ الله!

هند ـ الله! نعم يا سيّدي، الله! أقولها أنا من أعماقي. من قرارة ذاتي. من احترامي، بل من تقديسي لكلّ مشروع ولادة جديدة. ولكن، ماذا كنت سأقصّ عليك؟ لقد قطعت عليّ حبل أفكاري!

سالم (بلهجة من يتلو نشرة أخبار) ـ كنتِ في الحديقة تنتشين لمشهد براعم...

هند ـ حسناً! لقد طفت طويلاً بين شجيرات الورد...

سالم ـ لدينا ثلاث شجيرات على ما أذكر...

هند ـ ثمّ توقّفت لحظة عند شجيرة ورد أبيض هي أزهى شجيراتنا وأجملها.

سالم ـ يسهل التفوّق مع انعدام المنافسة.

هند ـ انحنيت على وردة أستنشق أريجها. ومن خلال الوردات البيض والأوراق الخضر النضرة لمحت من بعيد، في عمق حديقتنا...

سالم ـ لابدّ أنّك لمحت عن كثب، فحديقتنا بمساحة منديل...

هند ـ مستلقية على أريكة يعشّش فوقها الياسمين...

سالم ـ تقصدين الخوان الخشبي المسوّس...

هند ـ صبيّة وفي يدها كتاب...

سالم ـ وصلنا إلى بيت القصيد!

هند ـ كانت تمسك بالكتاب، ولكن لا تطالع فيه. فقد سرحت نظراتها في الحديقة. كانت تنظر في كلّ شيء وفي لاشيء.

سالم ـ كانت تشبهك طبعاً.

هند ـ ربّما، فوجهها بدا لي أليفاً.

سالم ـ كانت أجمل منك حتماً!

هند ـ ولماذا؟

سالم ـ هكذا أفضل.

هند بعصبيّة ـ كانت جميلة وكفى.

تصمت لحظة ثمّ تضيف بصوت حالم:

هند ـ امرأة جميلة، مستلقية على أريكة في حديقة، سارحة النظرات، في يدها كتاب لا تقرأ فيه... إنّها دعوة إلى الحلم، أنت توافقني على ذلك.

سالم ـ (بلهجة هازئة) ـ أوافقك بكلّ تأكيد.

هند ـ صبيّة مستسلمة كمادّة خام، كورقة بيضاء، ككتلة عجين تجبل منها ما تشاء.

سالم (بشيء من الفضول) ـ وماذا جبلت؟

هند ـ الإطار المحيط ملائم. حديقة غنّاء...

سالم ـ لا تبالغي!

هند ـ صمت لا تقطعه إلاّ أصوات عذبة: خرير مياه، زقزقة عصافير...

سالم ـ بأيّ سحر سكن ضجيج الشّارع وصياح الجيرة!

هند ـ هدوء، عذوبة. سكينة. وامرأتان.

سالم ـ كنّا بواحدة حتّى الآن!

هند ببرودة ـ حرّك الإبرة من فضلك.

سالم ـ ماذا؟... أيّ إبرة؟...

هند ـ بتعبير آخر، ضع حدّاً لتشويشك وإلاّ أغلقت مذياعي.

سالم (يضحك) ـ حسناً، تابعي.

هند ـ أراك قد عضضت على الطعم!

سالم (بسخرية) ـ إنّ لحكاياتك إغراءً لا يقاوم!

هند (تهزّ كتفيها استخفافاً) ـ لم تعد سخريّتك تؤثّر فيّ. إنّ عشرة أعوام من الحياة المشتركة قد أعطتني مناعة ضدّها. بتّ مدرّعة ضدّ أسهمك السّامّة.

تخطو بعض الخطوات في الغرفة؛ تقترب من الطاولة التي يعلوها إناء الزهور. تمرّر يدها على الزهور ثمّ تقول وهي تنظر ناحية النافذة المطلّة على الحديقة.

هند ـ متى ستدرك حاجتي إلى الإفصاح عمّا أشاهد في الحديقة؟

سالم ـ يوم تدركين حاجتي إلى الاستماع إلى نشرات الأخبار!

(لحظة صمت ويتابع سالم).

سالم ـ ألم يدخل أحد عليكما؟

هند ـ مكثنا طويلاً في عزلة تامّة. هي غارقة في دنياها، غير منتبهة لوجودي، وأنا أحدّق النظر إليها، مدقّقة، متفحّصة، متملّكة. إلى أن جاءت اللّحظة المباركة. لحظة السّعادة التّامّة، المطلقة.

سالم ـ مهلاً. لم أعد أتبعك. ما هذا النّغم الجديد الذي خرجت به اليوم؟ لحظة مباركة؟ ماذا تقصدين بهذه العبارة المبهمة؟ وضّحي، فأنا لا أحبّ الألغاز.

هند ـ ألغاز؟ عن أيّ ألغاز تتكلّم يا راصد نشرات الأخبار؟ أنا أحدّثك عن حديقتي! فهل تريدني أن أمتطي عبارات نشراتك الممجوجة؟ أكّدت أنباء... تفيد معلومات... صرّح فلان أو علاّن... أعرني أذنك البكر عندما أساررك.

سالم (بتهكّم) ـ هل لديّ أذن بكر وأخرى مفضوضة الطبلة؟

هند (تقاوم رغبتها في الضحك) ـ وقانا الله شرّ انبعاج طبلة أذنك! فلو ثقل سمعك لرجّت جدران البيت بصوت مذياعك.

سالم ـ لحظة مباركة. إذن بكر. اليوم يوم الفتوحات الكلاميّة!

هند ـ يا سيّدي العزيز، أردت فقط أن تصغي إليّ بروح جديدة، بعقليّة مختلفة. هذا ما قصدت عندما طلبت منك أن تعيرني أذنك البكر.

سالم ـ ولو أعرتك أذني البكر لأدركت مضامين وأبعاد اللّحظة المباركة؟

هند ـ حاول.

(يغلق سالم عينيه ويمكث لحظات صامتاً. ثم يفتح عينيه).

سالم ـ حاولت ولم اردد فهماً ومعرفة. اللّحظة المباركة تتجاوزني...

هند (بلهجة معاتبة) ـ قل إنّك قد صمّمت على مضايقتي وإزعاجي.

(تضيف وكأنّها تخاطب نفسها).

هند ـ كيف يمكن لمطرب أن يؤدّي وصلته إذا ما أصرّ العازف المرافق على مقاطعته لحظة بعد أخرى؟

سالم ـ المطرب الذي يحظى بعارف مرافق يبقى محظوظاً بين أقرانه! ينبغي ألاّ تفوتك هذه الحقيقة، سيّدتي...

هند ـ سأنقش هذه الحقيقة في ذاكرتي نقشاً! ولكن... لماذا لا تتوّج حظّي العظيم بعزف شجيّ يوقظ الإلهام ويحتضنه بدلاً من أن تتعمّد الضرب على أعصابي؟

سالم ـ ليكن! لك ما تشائين... في يدي الآن ريشة أثيريّة أدغدغ بها أوتار عود قلبي.

(يتّخذ سالم جلسة عازف عود ويرتفع صوته بالغناء):

سالم ـ «غنّ يا عود، كلانا شهوات الشهوات».

هند (وهي تضحك) ـ من أين جئت بشهوات الشهوات هذه؟... ولكن... بعد التفكير... ربّما تكون قد أصبت الوتر الحسّاس...

سالم ـ تابعي.

هند ـ نعود إلى الحديقة... إلى الورد الأبيض... إلى الصبيّة المستلقية على أريكة... إلى المرأة الحالمة المستسلمة لناظريّ... ماذا حصل لها؟... ماذا سيحصل لها؟... أشعر بالدوران أمامها، لكأنّي على قمّة شاهقة أعانق مساحات بلا حدود... أراها الآن تستقيم في جلستها. الكتاب يسقط على الأرض. تنحني لتلمّه ثمّ تعدل. تتأمّله لحظة جاثماً على أرض الحديقة ثمّ تدفعه بحركة من قدمها. تمرّر يدها في شعرها الأملس وتزفر زفرة طويلة.

سالم ـ لا تطيلي في الوصف. عجّلي بشبك حبكة.

هند تنظر الآن لجهة سياج الحديقة. ترتسم على وجهها علائم الدّهشة، ثمّ الغبطة. يفترّ ثغرها عن ابتسامة رضى. تحني رأسها وتهتمّ بلمِ الكتاب). أسترق النّظر بدوري إلى السياج. مراهق وسيم ينتصب خلف الأعمدة الحديديّة.

سالم ـ أواثقة أنت من وسامته؟

هند ـ مراهق وسيم وحزين يشبه أمراء أيّام زمان.

سالم (بسخرية) ـ حدّقي فيه جيّداً. قد يكون رمزي الأبله أجير اللّحّام...

هند ـ في وجهه شحوب العشّاق الرومانسيّين.

سالم ـ عرفته. إنّه ماهر المعلول ابن حليمة الشغّالة.

هند (بانفعال) ـ إن لم تضع حدّاً لهذه التعليقات السمجة فإنّي...

سالم ـ تابعي، تابعي، لن أشوّش عليك بعد الآن.

هند ـ تابعي! تابعي! لكأنّي مذياع (تضغط على زرّ فيه فيخرس، تعاود الضغط عليه فيتكلّم).

(تصمت لحظة ثمّ تضيف).

هند ـ مع أنّ تطوّرات رائعة كان يمكن لها أن تقع. حديقة، وامرأة حالمة وسئمة، ومراهق رهن نفسه للعشق.

تنظر إلى سالم شزراً وتقول بلهجة ناهرة.

هند ـ لماذا رحت تشوّش وتشوّش حتى أفقدتني متعة الرّواية؟

سالم ـ بصراحة، لا أعتقد أنّ هنالك ما يستوجب روايته.

هند (بغضب) ـ كيف؟ ماذا تقول؟

سالم ببرود ـ أقول لو كانت حكايتك مقنعة، لو كنت أنت مقتنعة بها، لأصررت على روايتها حتّى ولو تعمّدت جوقة بأكملها التشويش عليك.

هند ـ هكذا إذن! أنت... أنت تقتل القتيل وتمشي في جنازته. إنّ حكايتي لا تستحقّ أن تُسرد على مسامع سيادتك. حكايتي إذن لا تستحق حتّى أن أرويها لنفسي. قل إنّ خيالي قد نضب. قل إنّي لا أصلح لشيء.

سالم (مهدئاً) ـ لم أقصد ذلك... ولكن، لماذا تفرضين على نفسك تحدّيات مستحيلة؟

هند ـ لم أفهم.

سالم ـ إنّ إطلاق الأسهم النّاريّة يستوجب معدّات وتجهيزات وأرضيّة مناسبة.

هند ـ بكلّ تواضع أعود فأكرّر: لم أفهم.

سالم ـ بل أنت تفهمين جيّداً. دنياك تقتصر على هذه الدّار الوضيعة الكائنة في حيّ نكرة من مدينة يعشّش فيها السّأم منذ قرون وقرون. لا جديد ولا مثير في حياتك. فاليوم مثل الأمس، والغد مثل اليوم. وأنت تعرفين ذلك! ولكن كلّما أطللت برأسك على تلك البقعة البائسة من الأرض المعشوشبة، على حديقتك كما تدّعين، تتوهّمين بأنّ الآفاق البعيدة قد غدت ملك يديك. تزرعينها وجوهاً سحريّة وتصرّين على تحويلها إلى مسرح لأحداث خارقة. فماذا يمكن أن ينبت في هذه الأرض الجدباء؟ وهل لقصص الحبّ العظيمة أن تتغذّى من الضّجر والسّأم؟

هند ـ وبمَ تتغذّى إذن؟ بالصّحب؟ بالأحداث المثيرة والمتلاحقة؟ بالإحساس بالرضى؟ بالشّعور بالامتلاء؟ لا يا عزيزي. إنَّ نبتة الحبّ كيما تنمو تحتاج إلى سماد من نوع آخر.

سالم ـ إن كنت ستلقين عليّ حطبة حول دور الحرمان في تأجيج نار الحبّ، فإنّي أقول لا! لن أستمع لمثل هذا الكلام الفارغ.

هند ـ ما هذه النغمة الجديدة التي خرجت بها؟ أنا أشيد بالحرمان؟إن كان من كلمة تثير تقزّزي، فهي كلمة حرمان على وجه التحديد. بصراحة يخيّل إليّ أحياناً أنّك تجهلني كلّيّاً. وإنّي لأعتبر ما قلته لتوّك بمثابة إهانة لي.

سالم ـ إهانة؟

هند ـ أجل، إهانة لمشاعري المرهفة

سالم ـ عدنا إلى الألغاز ثانية!

هند ـ وأين ترى الألغاز؟ . . أكلّما تعذّر عليك استيعاب رأي، أو فكرة، أو خاطرة، سارعت إلى تصنيفها في فئة الألغاز؟ إنَّ ردّة فعلك هذه تنمّ عن خمول ذهني مقلق، عن إضراب مزمن ومتعمّد عن التفكير.

سالم ـ مهلك! لن أسمح لك بإهانتي

هند ـ ولكنّك أنت البادئ!

سالم ـ ربّما، ولكن عن غير تصميم.

(يسود صمت).

سالم ـ لماذا خرجت عن طورك لدى سماعك كلمة «حرمان»؟

هند ـ لأنّي أمقت هذه الكلمة، فهي تختزل بؤس العالم كافّة. ثمَّ . . . أنا أكره مَن ينظر إلى الحياة نظرة محروم.

سالم ـ وكيف ينظر إلى الحياة من لم ينل نصيبه من متعها ولذّاتها؟

هند ـ نظرة سأم وتعالٍ!

سالم ـ هذه نظريّة جديدة.

هند ـ لا، إنّها قديمة قِدَم الزمن. إنّها أساس الإبداع.

سالم ـ المبدعون أناس يعانون من الضّجر؟

هند ـ أجل، بمن فيهم المبدعون في الحبّ. تذكّر أجمل قصص حبّ قرأتها؛ ألم تكن مدن السّأم مسرحها؟ فالإبداع في الحبّ يحتاج إلى خيال خصب. وكيما يجمح الخيال ويتحوّل إلى طاقة خلاّقة، فهو يحتاج إلى الصّمت، إلى الرتابة، إلى استفحال السّأم. أتعتقد بأنَّ قيساً كان سيهيم في عشق ليلى لو لم تكن الصّحراء دنياه؟ ثق أنّه لو عاش على إيقاع الأحداث المثيرة، لو قيّض له أن يعرف مذاق الحماسه، لو شدّته مغامرة الحياة وأوثقته بقيودها، لما استقطبه حبّ ليلى يا إلهي، لكم عانى هذا الإنسان من الضّجر! يقيني أنَّ ليلى، وجه الحبّ الأسطوري، ما كانت لتكون لو عرف قيس كيف يداوي ضجره.

سالم ـ عظيم، لقد أفحمتني. ولكن يا سيّدتي ألست أنا صحراءك؟ ألست صانع ضجرك؟ ألم أفرض عليك حياة رتابة قاتلة؟

هند ـ أجل.

سالم ـ لِمَ لا تبدعين إذن؟ لقد وفّرت لك الظروف الموضوعيّة المؤاتية. فلِمَ لا تأتين من حديقتك بقصص حبّ عظيمة؟

هند (بانفعال) ـ لأنّك تتعمّد دوماً قتل الوليد قبل أن يطلق صرخته الأولى!

سالم (بحدّة) ـ من السّهل إطلاق الاتّهامات. أنا لم أبادر يوماً إلى التدخّل في شؤونك! حسبي من الدّار هذه الغرفة التي تصرّين أنت على اقتحامها طوال ساعات النهار.

هند ـ أصرّ على اقتحامها؟ ولكنّها مجرّد غرفة من غرف داري، ولي الحقّ، كلّ الحقّ، في الدخول إليها في اللّحظة التي أشاء.

سالم ـ لم أمنعك من ذلك يوماً، لم أقم حاجزاً فاصلاً بيننا. غير أنّي لا أحاول قطّ التحرّش بك. فكيف تتّهمينني بالتّشويش عليك؟

هند ـ إنَّ اتّهامي في مكانه. فأنت لا تجيد الإصغاء إليّ.

سالم ـ ولماذا ينبغي عليّ أن أجيد الإصغاء إليك؟

هند ـ لأنّك مستمعي الوحيد يا سيّدي! إنَّ جمهوري يبدأ من أعلى رأسك وينتهي عند أخمص قدميك. تلك هي مأساتي!

(سالم يصفّق وهو يبتسم بسخرية).

هند ـ لا تجهد نفسك، لقد أنزلت الستارة.

(تجلس هند على مقعد في قبالة سالم، تأخذ مجلّة من فوق طاولة صغيرة مجاورة، تفتحها فيختفي رأسها خلفها. يسود صمت يسعى سالم إلى قطعه بتصفير لحن أغنية. يضغط بعد ذلك على زرّ المذياع فيرتفع صوت المذيعة تالياً نشرة الأخبار. هند لا تحرّك ساكناً وتمكث قابعة خلف مجلّتها. يعمد سالم إلى إغلاق المذياع، يتململ في جلسته، يهمهم، يسعل ثمَّ يقول):

سالم ـ إنَّ الخبر الذي كنت راغباً في الاستماع إليه ثانية بالغ الأهمّيّة. فقد تجدّد القتال في الجبل . . .

(هند تقلب صفحة في مجلّتها وتتابع القراءة دونما تعليق).

سالم ـ بالرّغم من تردّي الأوضاع على مدى سنوات فإنّي، في الحقيقة، لم أفقد الأمل تماماً. مكثت في صميمي واثقاً من أنَّ النضال سيستأنف.

(هند تبحث عن علبة لفائفها على الطّاولة. تولع لفافة وتعود إلى المطالعة).

سالم (بحدّة) ـ أنت تدركين أبعاد هذا الحدث العظيم، فلماذا

تتظاهرين باللّامبالاة؟ لماذا لا يندّ عنك أيّ ردّ فعل؟

هند ـ أنا لا أتظاهر باللّامبالاة، أنا غير مبالية.

سالم ـ هذا موقف مرفوض!

هند ـ ولماذا؟

سالم ـ لأنّكِ... لأنّه... وهل يعقل أن يتجدّد القتال في الجبل من دون أن يتحرّك شيء ما في أعماقك؟

هند ـ ولماذا ينبغي أن تهتزّ أعماقي؟ ألأنّ بعضهم عزم على ممارسة لعبة الحرب؟

سالم ـ هكذا إذن؟

هند ـ ولاسيّما أنّها لعبة ممجوجة.

سالم ـ كيف تسمحين لنفسك بإطلاق مثل هذه الأحكام؟!

هند ـ إن كان السّأم دافعهم فليمارسوا الحبّ. إنّه أقلّ ضرراً في مطلق الأحوال.

سالم ـ بصراحة أنت تتنكّرين لنفسك. لم أعد أعرفك.

هند ـ ما الرّقم التسلسلي لهذا الحدث العظيم؟

سالم ـ ماذا تقصدين؟

هند ـ أعني أهي المرّة العشرون، أم الثلاثون، أم الأربعون التي يتجدّد فيها القتال في تلك المنطقة العزيزة إلى نفسك؟

سالم ـ لست أدري... لماذا تسألين ذلك؟ ما معنى هذا السؤال؟

هند ـ بل أنت تدرك تماماً معنى هذا السّؤال. فأيّ قتال ذاك الذي لا يكفّ عن التجدّد؟ لماذا لا يستمرّ؟

سالم ـ هنالك ظروف موضوعيّة تحول دون هذا الاستمرار، فلماذا تسقطينها من حسابك؟

هند ـ وهنالك أيضاً ظروف ذاتيّة تحول دون هذا الاستمرار، فلماذا تسقطها أنت من حسابك؟

سالم ـ أنت لا تفقهين شيئاً في هذه الأمور.

هند ـ حسناً، لا تحدّثني عنها إذن.

سالم ـ ولكن مع من أتحدّث عنها؟

هند (تضحك) ـ أنا جمهورك الوحيد، أعرف ذلك تماماً.

(يسود صمت يقطعه سالم قائلاً بصوت حالم).

سالم ـ إنّ لتجربة النّضال مذاقاً لا ينسى.

هند ـ بكلّ تأكيد، وإلّا لما مكثت على مدى عشرة أعوام تجترّ ذكريات عام واحد، عام يتيم من النّضال!

سالم ـ أمنعك عن الطّعن في ماضيّ!

هند ـ بل أنا أسخر من حاضرك.

سالم ـ لئن تقاعست عن النّضال فلجملة من الأسباب.

هند ـ أعرف، لجملة من الأسباب «الموضوعيّة»... في مطلق الأحوال أنا لا أسخر من تقاعسك عن النّضال، حتى ولو كان ثمّة أسباب ذاتيّة وراء هذا التقاعس.

سالم ـ ممَّ تسخرين إذن؟

هند ـ من إصرارك على اعتبار نفسك مناضلاً. مناضل متقاعد، وإنّما مناضل...

سالم ـ كلام فارغ!

هند ـ لا يا سيّدي، بل كلام صائب بدليل أنّه قد أصابك في الصميم!... لو لم تكن تعتبر نفسك إنساناً متقاعداً لقمت بأيّ عمل مفيد. ولكن كيف تنفق ساعات نهارك؟ في الاستماع إلى نشرات الأخبار. في ترقّب أنباء تجدّد القتال. تعرف بمن تذكّرني عندما تصغي بجدّ ووقار إلى مذياعك العزيز؟

سالم ـ بمن؟

هند ـ بجارنا أبو فوّاز!

سالم ـ موظّف البريد؟

هند ـ موظّف البريد السّابق. فقد تقاعد عن عمله منذ سنوات، بدافع السّن، وهذا ما يغفر له. ولكن، كلّما أتى أحدهم بذكر البريد أمامه، نفخ صدره ورفع رأسه وانطلق يقول: عندنا في الدّائرة...

سالم ببرودة ـ شكراً على هذا التشبيه.

هند (بسخرية) ـ لا شكر على واجب. فمن واجبي أن أعكس لك وجهك الحقيقي. أنا مرآتك. والمرآة لا ترحم يا عزيزي. إنّها تعطي صورة طبق الأصل عن الواقع!

سالم بعصبيّة ـ أنا أعيش واقعي ولا أبحث عن صورته في مرآة.

هند ـ حسناً، لا تحدّثني إذن عن القتال في الجبل.

سالم (بانفعال) ـ أنا لا أحدّثك!... كلّ ما هنالك أنّي أودّ أن أتذكّر في حضور شخص، في حضور إنسان. هل أطلب المستحيل؟

هند (ترمي المجلّة من يدها) ـ تبحث عن أذن صاغية؟ لتكن أذني. تفضّل وتذكّر الآن.

سالم ـ هكذا؟ على الطّلب! أمذياع أنا كيما أتكلّم بمجرّد إشارة منك؟

هند ـ تريد عزفاً مرافقاً؟ حاضر... كنتم مجموعة من الشباب في منطقة جبليّة نائية. كان هنالك هاشم ورمزي، وصالح وشوقي، ومحسن وعزمي...

سالم ـ من أين جئت بهذه الأسماء؟

هند ـ كنتم شباباً في ريعان الشّباب. حبّ الوطن حافزكم والإيمان بالثّورة نابضكم. كنتم تحلمون بتغيير وجه العالم بسلاح آرائكم وقوّة إقناع بنادقكم.

سالم ـ تابعي، يعجبني كلامك.

هند ـ مهلك! لا تقلب الأدوار. مهمّتي التنغيم، أمّا الإنشاد، فلك. فالحكاية حكايتك!...

سالم ـ بكلّ تـأكيد! بـل كوني عـلى ثقة بـأنّي لن أتنازل لـك عنها يوماً.

هند ـ تفضّل إذن وشنّف أذنيّ بلحن خلودك.

سالم (ببرود) ـ أغلقنا المذياع.

هند ـ ولماذا؟

سالم ـ فريد الأطرش يعتذر عن أداء وصلته.

هند (بتهكّم) ـ بالرّغم من تجدّد القتال؟

سـالم (بانفعـال وهـو يشـير بحـركـة دائـريّـة من يـده إلى غـرفـة الجلوس) ـ بل بسبب استمرار القتـال في هذه السّـاحة اللّعينـة... فحتّى لو سكتت البنادق في ساحات القتال كافّة لبقي أزيز رصـاصها يدوي في هذه السّاحة.

هند (وهي تضحك) ـ غير أنّه مجرد أزيز. فرصاص هذه السّاحـة لا يقتل حتى وإن أصاب. هنا نكتفي بالفرقعة يا أستاذي العزيز!

سـالم (كمن يخاطب نفسـه) ـ عندمـا سمعت الخبر دبّت حمـاسـة رائعـة في عروقي، وانتشرت فجـأة في هـذه الغـرفـة رائحـة الجبـل المميّزة. رائحة الزعتر، والسنديان، وقطرات الندى الصباحيّة.

هند ـ ألم تكن رائحة البارود هي المسيطرة؟

سالم ـ وتزاحمت أمام عيني صور الرّفاق الشّاهرين بنادقهم.

هند ـ أفهم هذا التزاحم: فقد تصوّرتم أكثر ممّا قاتلتم!

سالم ـ وسمعت ضحكاتهم وعبارات مزاحهم..

هند ـ هل كنت في معسكر للمقاتلين أم في مخيّم للكشّافة؟

سـالم ـ ثمّ... ثمّ رأيت غيـاثـاً يخـرج من خيمتـه، يلوّح لي بذراعه، يدور فجأة على نفسه، وبعد ذلك يهـوي. وجهه يشحب، وصـدره يتحـوّل إلى بقعـة بـدأت صغـيرة، وامتـدّت وامتدّت...

هند (بصوت متهدّج) ـ عدنا إلى قصّة غياث! ما شأنها والجبل؟

سالم (بوقار) ـ غياث شهيد الجبل.

هنـد (بحدّة) ـ بـل ضحيّة رصـاصة طـائشة! صيّـاد غبي أخـطأ طريدته فأصاب رفيقك وأرداه قتيلاً. تلك هي الحقيقة، فمتى تسلّم بها؟

سالم ـ تلك حقيقة الصيّـاد. لقد اعـترف بأنّـه أطلق رصاصـة في اتّجاهنا. ولكن أهي التي أصابت غياثاً؟ السّؤال يبقى مطروحاً...

هند ـ عليك فحسب!

سالم ـ كان العدو متربّصاً بنا. ويقيني أنّ الـرصاصـة الغادرة قـد انطلقت من صفوفه.

هند ـ بكلّ تأكيد! عدو ويطلق رصاصة واحدة! ولماذا لم يـرشّكم جميعاً؟ لماذا وفّركم؟ لماذا اكتفى بضحيّـة واحدة فيـما كنتم تسرحون وتمرحون على مسافة أمتار منه؟

سالم (بحدّة) ـ لم نكن نسرح ونمرح. كنّا قد استيقظنا لتوّنا!... ولكن شيئـاً واحداً لا أفهمـه: لِمَ تصرّين على رفض فكـرة استشهاد غياث؟ بِمَ تزعجك هذه الفكرة؟

هند ـ بكونها تناقض الحقيقة.

سالم ـ أيّ حقيقة؟ حقيقة الصيّاد؟

هند ـ الحقيقة الموضوعيّة! فلو انتابت الصيّـاد شكوك لمـا أقرّ بـأنّه قد تسبّب في مقتل إنسان!... أنت ترفض التسليم بحقيقة ساطعة ولأسباب واضحة.

سالم ـ وما هي هذه الأسباب الواضحة التي غاب عنّي إدراكها؟

هند ـ لا داعي لوضع النقاط على الحروف.

سالم (بسخرية وتحدّ) ـ بل إنّي أتوسّـل إليك أن تتفضّـلي وتضعي النقاط على الحروف. هذا إذا كان عندك فعلاً ما تقولينه!

هند ـ فليكن. إنّ مقتل غياث هو الدليل الأوحد على نضالك في الجبل...

سالم ـ ماذا تقصدين؟

هند ـ أقصد أنّه طوال تواجدك في الجبـل لم يصرع أحد بـاستثناء غياث.

سالم ـ...

هند ـ وإذا ما سلّمنا بأنّ غياثاً قد ذهب ضحيّة صيّاد أخرق فهذا يعني...

سالم بعصبيّة ـ هذا يعني ماذا؟

هند ـ هذا يعني يا سيّدي أنّك قد أمضيت في الجبل فترة استجمام ليس أكثر.

سالم ـ هكذا إذن!

هند ـ نعم. وهذا يعني أنّ على نضالك المسلّح السلام!

سالم ـ لن أسمح لك...

هند ـ وهذا يعني أنّ ماضيك الملحمي وهم وخيال.

سالم ـ كيف تتجرّأين...

هند ـ وهذا يعني أنّك كشّاف متقاعد.

سالم ـ ألن تكفّي عن الهذيان!

هنـد ـ من أجل ذلـك كلّه تصرّ على إغـماض عينيك عن حقيقـة بـديهيّة وتتشبّث بفكـرة استشهاد غيـاث. (تضيف بصـوت مـرتفـع وحادّ) غياث قتـل وهو يضحـك وبرصـاصة مـواطن كان قـد خرج للصّيد. إنّ اسمه لا يستحقّ أن يخطّ بأحرف من نور على صفحـات سجلّ التّاريخ الذهبيّة؛ مكانه زاوية الوقائع اليوميّة في جريدة محلّيّة!

سـالم (بحدّة) ـ لِمَ هـذا الحقد؟ لِمَ هـذا الاستشراس في الطعن في ذكرى شاب كان مثالاً للشهامة والعطاء والتفاني في سبيل الآخرين؟

هنـد (بصـوت منخـفض) ـ كـان بـودّي ألاّ أتفـوّه بـتلك

الكلمات . . غير أنّي دفعت مرغمة إلى الإفصاح عن قناعتي بصدد هذا الحدث المؤسف. وأنت الذي أثرت الموضوع!

سالم (بعد صمت وكأنّه يخاطب نفسه) ـ غياث كان قد خرج للنضال، وأنا كذلك . . .

هند ـ ما من أحد ينكر هذه الحقيقة. لقد خرجتما فعلاً للنضال، وبإيمان وعزيمة. ولكن . . . كلّ من خرج لا يعود بالضّرورة بذراعين محمّلتين.

سالم ـ نحن جيل الإحباط

هند ـ لا تعمّم! فهنالك من يزرع ويحصد.

سالم ـ إهديني، أرجوك، إلى حصّاد واحد!

هند ـ . . .

سالم ـ أراكِ تلزمين الصّمت. . ولكنّك تبتسمين باعتزاز . . . هل أفهم من ذلك أنّك تصنّفين نفسك في فئة الحصّادين؟

هند ـ حاشا لله أن أصنّف نفسي في فئة من الفئات!

سالم ـ أأنت نسيج وحدك؟ نموذج فذّ، فريد، غير قابل للتقليد؟

هند ـ . . .

سالم ـ أنا كشّاف متقاعد. وأنتِ، عمّ تقاعدت؟

هند ـ أنا لم أتقاعد. أنا مازلت مشروعاً.

سالم ـ مشروع؟

هند ـ أجل. مشروع عظيم أنا كاتبة!

سالم ـ وأين مؤلّفاتك؟

هند (وهي تشير إلى رأسها ثمّ إلى صدرها) ـ إنّها هنا وهنا.

سالم (بسخرية متعمّدة) ـ آه. فهمت. تقصدين أنّك كاتبة بالقوّة. عظيم. عظيم جدّاً. وأنا يا سيّدتي غيفارا بالقوّة!

هند ـ لا!

سالم ـ ولِمَ لا؟

هند ـ لأنّك حاولتَ وفشلت.

سالم ـ حسناً! حاولي بدورك. ضعي نفسك على محكّ التجربة. اكتبي ولو صفحة واحدة لنتأكّد من موهبتك.

هند ـ سيأتي يوم أقطع لك فيه الدليل السّاطع على هذه الموهبة.

سالم ـ ومتى سيأتي؟ في شهر؟ في عام؟ في دهر؟ . . .

(يسود صمت تقطعه هند قائلة بصوت منخفض).

هند ـ لكم عقدت الآمال على مجيء هذا اليوم! ولكن . . . حسبي من حديقتي حكايات أخالها رائعة فإذا بها تعجز حتّى عن إقناعك.

سالم ـ إنّها تفنعني . . . في بعض الأحيان على الأقلّ.

هند (باهتمام) ـ أجادٌ أنت؟ . . . أصادق فيما تقول؟ . . .

سالم (وهو يطلق زفرة) ـ تروين عليّ حكاياتك من الصباح إلى المساء فيكف لا أُصاب بضرب من الإدمان عليها! . . . بالمناسبة، في أيّ حال غدت حديقتك الغالية؟

هند ـ لقد اجتاحتها الأعشاب الضارّة وحوّلها أولاد الجيرة إلى مزبلة . . . مع ذلك، عندما أخرج إليها في الصباح الباكر، أو في ساعة غسقيّة تحرّك الحنين وتشحذ الأحلام، تنبعث فيها شخوص ووجوه تختزل جمال الدنيا! . . . لولا هذه الحديقة . . .

سالم ـ أجل، لولا هذه الحديقة . . . ولولا هذا المذياع . . .

(ينحني سالم على الطاولة إمامه ويضغط على زرّ المذياع. يرتفع صوت أنثوي قائلاً: «جاءنا الآن ما يلي: إنّ القيادة في الجبل تحرص على نفي خبر تجدّد القتال الذي تناقلته وكالات الأنباء وتحمّل العدوّ مسؤوليّة تلفيق هذا النبأ بهدف جرّ الثوّار إلى المعركة في الوقت الذي يختار. والقيادة إذ تؤكّد عزمها على متابعة النّضال وعلى إيمانها بالنّصر، تعلن أنّ الهدوء مستتبّ في الجبل وأن لا شيء يعكّر صفو الأمن فيه».

سالم (بمرارة وهو يغلق المذياع) ـ ولا حتّى رصاصة طائشة صادرة عن بندقيّة صيّاد غبي.

هند (بمودّة) ـ لا يهم . . . قد يتجدّد القتال غداً . . . أو بعد غد . . .

سالم (بسخرية) ـ أو بعد سنة، أو بعد قرن . . . الشعارات لاتزال قائمة والمناضلون لايزالون على أهبة الاستعداد. لم يبقَ إلاّ اختيار اللّحظة المناسبة، اللّحظة المباركة لخوض المعركة الفاصلة!

هند ـ الذنب ليس ذنبك، ولا هو ذنب غياث أو أقران غياث . . .

سالم ـ ذنب من إذن؟ ذنب الإنكليز أم الطليان؟ لا تدّعي، أرجوك، أنّه ذنب القيادات. فالمقاتلون يستحقّون قياداتهم تماماً كما تستحقّ الشعوب أنظمتها! . . .

هند ـ ربّما كان ذنب الجبل.

سالم بدهشة ـ الجبل؟ . . .

هند ـ أقول ربّما . . .

سالم ـ وما شأن الجبل بهذا الإحباط؟

هند ـ ربّما كانت أرضيّته غير مؤاتية! تضاريسه . . . تاريخ تكوينه . . . موقعه، لست أدري!

سالم (وهو يهزّ كتفيه) ـ يا له من تفسير! من أين تأتين بمثل هذه التعليلات؟ من حديقتك؟ . . . حالمة ممتهنة تحكي . . .

هند ـ ومناضل متقاعد يسمع؟

(تنطلق هند في ضحكة طويلة. ينظر إليها سالم شزراً، ثمّ تلين نظراته؛ يبتسم بالرّغم منه ويغلب عليه الضّحك بدوره).